خطاب الأستاذ
الدكتور عبد الوهاب حومد

في حفل استقباله

بين يدي هذه الكلمة :

اسمحوا لي أيها السيدات والسادة :

١ ـ أن أعرب لكم عن خالص الامتنان لتفضلكم بحضور هذه الأمسية ، تكريماً منكم لرجال العلم .

٢ ـ وأن أخص صديقي العزيز الأستاذ الدكتور محمد إحسان النص بأصدق آيات الشكر والعرفان على كلمته الكريمة . وما قاله فيَّ شرف لا أدعيه ، وتُهَمٌ لا أبرئُ نفسي منها .

٣ ـ وأن أشكر أخي الأستاذ الدكتور شاكر الفحام ، نائب رئيس المجمع ، على ترحيبه الجميل بي .

٤ ـ وأن أوجّه تقديري العميق للزملاء الأفاضل من أعضاء المجمع الذين انتخبوني بإجماع أصواتهم لأكون واحداً منهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السيدات والسادة :

حين بدأتُ بقراءة مؤلفات المرحوم الدكتور شكري فيصل وأبحاثِه الغزيرة ، لأتكلم عنه وفاءً بحقه عليَّ ، حسبت أنني أجالس الصديق الهادئ ، صاحب الطلعة الصافية والنظرات العميقة التي لا تكاد تخفي قلقها ، وصاحب الصوت الخفيض الناعم والتفكير السديد .. ولكن ما إن انتهيتُ من مطالعة ما دبجته يراعته ، حتى أدركتُ أنني على متن زورق فوق بحر محيط ، أنس إلى هدوء السطح وأحلامه فلما اجتذبته أولى الموجات عن شاطئ السلامة ، أخذ يُحِسُّ بما في الأعماق من تلاطم تيارات وتصادم انفعالات ... عندها أحسست بجسامة العبء وثقل المسؤولية .. ولكن الذي أغراني بعدم النكوص على عقبيَّ ، شعورٌ دفين بأنني لست غريباً تماماً عن هذه الأجواء الأدبية ، التي تقلبتُ في أحضانها زمناً ما ، قبل أن تنتزعني من جناتها الوارفة وأنغامها الشجية ، صرامة القانون وتجهُّم قسمات مواده المستعصية ، التي لا تنشر الدفء دوماً في النفس ...

وأحب أن أعرفكم بحياة الدكتور شكري تعريفاً موجزاً ، لأن باحثين أخياراً من أخوانه كتبوا عنه وأجادوا بحيث وجدتني أتساءل : هل غادر الشعراء من متردم ؟ ثم أتبسط في تعريفكم على إنتاجه الغني ..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولد الدكتور شكري – كما يتحدث عنه الدكتور عدنان الخطيب في دراسته عنه[1] – لأب أصله من مدينة حمص ، هو المرحوم عمر فيصل ، جاء إلى دمشق قبل الحرب العالمية الأولى واستقر في حي العقيبة وتزوج احدى بنات الحي ، فولدت له المرحوم الدكتور شكري عام ١٩١٨ وكان أخوها من أفاضل المربين في دمشق ، وكان يدير مدرسة ابتدائية في حي المسكية . ومات أبوه وتركه وحيداً ، فامتدت إليه بالرعاية يد خاله ، فاحتضنه ونشَّأهُ في بيته وزوجه ابنته الأستاذة الفاضلة « أم معتز » . وقد بقي طيلة حياته يشعر بعاطفة من العرفان نحو هذا الخال ، وعبَّر بصورة حسية عن هذا الشعور ، فأهدى إليه كتابه الرائع « المجتمعات الإسلامية » بقوله :

« إلى روح خالي محدث الشام الأستاذ الشيخ محمود ياسين ، أهدي هذا الكتاب . فهو رَوْح من رُوحِه ، وعَبَق من عبقه ، وفاءً ببعض حقه وإيماناً بفضله » .

وخصلة الوفاء هذه ظلت « فيصله » المميز طيلة حياته في علاقاته بأساتذته خاصة وبأصدقائه ... وكأنما لقي من بعض أصحابه ما لا يحب في بعض الأحيان ، فسالت مرارته على قلمه تشكو إلى الله تنكُّر المتنكرين ...

وأتم دراسته الابتدائية في مدرسة معاوية ، ثم انتقل إلى مكتب عنبر وهو المدرسة الثانوية الوحيدة التي كانت إذ ذاك في دمشق . وقد تلقى العلم فيها من أساتذة أجلاء ، كانوا في تلك الأيام ملء السمع والبصر ...

وقد حصل على الشهادة الثانوية بقسميها العلمي عام ١٩٣٦ والفلسفي عام ١٩٣٨ وبذلك جمع بين الحسنيين : تنظيم العقل وتذوق الأدب ..

(١) الدكتور فيصل وصداقة خمسين سنة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وانتسب إلى كلية الآداب في جامعة القاهرة ، فحصل منها على الشهادات التالية :

١ ـ الإجازة في الآداب عام ١٩٤٢ بدرجة الإمتياز .

٢ ـ الماجستير في الآداب بدرجة جيد جداً عام ١٩٤٨ .

٣ ـ دبلوم معهد اللهجات العربية « قسم اللغات الشرقية » عام ١٩٤٩.

٤ ـ الدكتوراه في الآداب بدرجة جيد جداً عام ١٩٥١ .

وعلاوة على هذه الشهادات الأدبية الرفيعة ، وجد رحمه الله وقتاً كافياً ليدرسَ الحقوق ، في كلية الحقوق بدمشق ، ويظفر بشهادتها عام ١٩٤٦ ، وهي السنة التي عينت فيها أستاذاً في هذه الكلية . وحين توثقت علاقاتنا بعد سنوات لم ينس أبداً أن ينزلني في تعامله معي ، منزلة واحد من أساتذته !..

وقد أهلته مؤهلاته العالية لتبوئ كرسي الأستاذية في كلية الآداب بدمشق منذ عام ١٩٥٢ . ومن سدة هذا المنصب أخذ إشعاعه الأدبي يغزو قلوبَ طلابه في الكلية وأفئدةَ الأدباء والمتأدبين المعجبين بقلمه وفكره من خارج الجامعة ، سواءٌ في محاضراته النفيسة التي كان يلقيها على رجال الأدب والعلم في المؤتمرات أو الحلقات أو الندوات ، أو ما كانت تنشره له المجلات الأدبية المتخصصة .

وقد مَثَّل سوريةَ في مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في بلودان عام ١٩٥٦ ، وفي مؤتمر القاهرة عام ١٩٥٧ . وفي تلك السنة مثَّل بلدنا في مهرجان أحمد شوقي ، وحاضر عن « نثره » ، كما مثَّلنا في مؤتمر الأدباء العرب في الكويت عام ١٩٥٨ وألقى فيه محاضرة بعنوان :

« البطولة في الأدب العربي الحديث منذ سقوط بغداد حتى فجر النهضة الحديثة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتعود بي الذاكرة إلى ذلك المؤتمر الأول للأدباء العرب الذي عُقِدَ في بلودان عام ١٩٥٦ ، والذي كان أولَ مؤتمر يحضره المرحوم ممثلاً لبلده .. فقد كان عليَّ أن أسمي أعضاء الوفد السوري ، بوصفي وزيراً للمعارف .. ولم تكن المهمة يسيرة : فقد كان في الوفد المصري طه حسين وأحمد رامي ويوسف إدريس وأمينة السعيد وفي الوفد العراقي محمد بهجت الأثري وبدر شاكر السياب وفي الوفد اللبناني ميخائيل نعيمة وقسطنطين زريق .. وكانت السعودية ممثلة بخير الدين الزركلي ... وشُكِّل الوفد السوري من الأساتذة خليل مردم بك وفؤاد الشايب وبدر الدين الحامد وأسعد طلس ... وشكري فيصل .. وعدد من الآدباء .

ولم يتكلم في المؤتمر من الوفد السوري غير الأستاذ فؤاد الشايب عن « الأديب والدولة » والدكتور شكري فيصل الذي ناقش محاضرة السياب .. عن « وسائل تعريف العرب بنتاجهم الحديث » .

وهنأتُه على كلمته .. وكانت تلك مناسبة حلوة لتعارفنا الأول ... ويطول بي الكلام لو أنني عددت المؤتمرات والندوات الأدبية والثقافية التي حضرها .. على ما فيها من استفادة وإفادة ، ولكني أذكر أنه ظل ملحقاً ثقافياً مدة عامين في القاهرة عمل خلالهما في الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية مع الأستاذ أحمد أمين والأستاذ ساطع الحصري ، وبعد عودته إلى دمشق ، عيِّن في لجنة التربية والتعليم في وزارة المعارف . وكانت هذه اللجنة تخطط لبرامج التعليم وتراقب الكتب المدرسية .. وكنت أنظر إليها نظرةَ تقديرٍ واحترام لأنها كانت الرأسَ التي ترسم للتعليم مساره في البلاد .

وهكذا فمنذ أولى درجات السُّلَّم كانت تناط بالدكتور شكري الأعمال الحساسة ... وكان يقوم بأعبائها بكفاءة تدعو إلى الاعتزاز :

وما الحداثة عن حلم بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم يقف إشعاعه الثقافي الفذ عند حدود الوطن الصغير ، فقد مَدَّ فيه بعيداً حتى عم أكثر بقاع الوطن الكبير ، وأتاح لأبناء جلدتنا من مشرق العروبة إلى مغربها أن يَنْهَلُوا من عطاء عبقريته . فقد حاضر كأستاذٍ زائر في جامعات فاس ووجدة ومَرَّاكُش والجزائر وطرابلس واليرموك وعَمان والرياض وبيروت والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة .. وفي مقامه في جوار قبر المصطفى لقي ربه ودفن إلى جوار النبي الذي أحبه حباً أخذ عليه مجامع قلبه ، عام ١٩٨٥ ...

وقد عَرَفَتِ المحافلُ الثقافية قدرَه فاختير عضواً في مجمع اللغة العربية الأردني ، والمجمَع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمان والمجمع العلمي العراقي وبيتِ الحكمة في تونس .. وكان واسطةَ العِقْد في مجمعنا وأميناً لسره ...

وقد تفجَّر من هذه الفعاليات الثقافية فيضٌ من الدراسات التاريخية الإسلامية ومجموعةٌ نادرة من المؤلفات والأبحاث الأدبية والاجتماعية أَعْرِضُ لها دون أن أتعمق في مضامينها مراعاة للوقت ، فيما يلي :

أولاً – الدراسات التاريخية الإسلامية

درس الدكتور شكري « حركة الفتح الإسلامي » دراسة جديدة لا تقتصر على دراسة النصوص القديمة واختيار أفضلها والتعليق عليها ، كما يفعل المؤرخون في العادة .. لأنه اختار في دراسته طريقةً حديثة متأثرة بأسلوب البحث العلمي الحديث . وقد أشار إلى هذا التجديد في مقدمة كتابه الثاني « المجتمعات الإسلامية » فقال :

« واستقر عندي أن موضوعاً يَعْرِضُ لدراسة الفتح الإسلامي وتكون غايتُهُ البعيدةُ أن يبلغَ آثارَه من حيثُ التطورُ اللغويُّ والأدبي في المجتمعات الإسلامية ، يجب أن يقوم على دِعامتين : أولاهما من **التاريخ نفسه** والثانية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من علم **الاجتماع** وعلم الاجتماع اللغوي بوجه خاص .. وإني إن لم أفعل ذلك ، لم يكن الموضوع إلا تلاعباً بهذه الحفنة من الأخبار والروايات التي تُديرُ الحديثَ عنها كتبُ الأدب واللغة ... » .

وهكذا جاء كتابُه التاريخي الأول « حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول » دراسةً نفيسة لم تكتف بعرض قصص المعارك وسرد الانتصارات ، بل إنه خرج فيها من المجال العربي إلى الأفق العالمي فأخضع النصوص إلى ما يسير عليه العلماء المتطورون من تحليل واستقراء دقيقين .. وعلى سبيل المثال فإنه بحث في فتوح الشام موقفَ عرب الشام وموقف الروم وموقف النصارى من الحركة العسكرية الإسلامية القادمة من الجنوب . وانتهى إلى القول بأن « الحرب اتخذت شكلاً دينياً واضحاً .. وكان مما لجأ إليه الروم أنهم استشاروا مشاعر الجماعة الدينية واستثمروا في ذلك رجالَ الدين أنفسَهم . والتفاصيل التي وردت في روايات بعض المؤرخين تُطْلِعُنا على أن قوادَ الروم كانوا يُقَدِّمون أمامهم الشمامسة والرهبان والقسيسين يُغْرُون الجند ويَحُضُّونَهم على القتال . ولا يختلف موقف نصارى الشام في مقاومتهم الفتح الإسلامي عن مقاومة الروم له . وهذا طبيعي كما يقول . فالإسلام دين جديد يدعو إلى غير ما تدعو إليه الديانةُ السائدة في الشام آنذاك ، وليس غريباً أن يقفوا في وجهه دفاعاً عن معتقداتهم الراسخة .. وإذن فليس هناك أهميةٌ تذكر لما يقال عن خلاف بين الكنيسة السورية التي كانت تقول بأن للمسيح عليه السلام طبيعةً واحدةً ، وبين الكنيسة البيزنطية التي تؤمن بما أقره مجمع خلقدونية عام ٤٥١ ميلادية من أن للمسيح طبيعتين : إلهية وبشرية ...

ومن المؤكد فإن إثبات الحقيقة ، ولو كانت مرةَ المذاق ، أثمنُ في نظر العالم المتبتِّل من أحاديث المجاملة التي تدغدغُ بعض الأحلام ، لأهدافٍ غير علمية ولكنها تسيء إلى الحق والتاريخ ..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعلى كل حال ، فإن كتاب « حركة الفتح الإسلامي » هذا ، دراسةٌ تمهيدية لنشأة « المجتمعات الإسلامية » التي تشكلت بعد الفتح في الشام والعراق ومصر والمغرب العربي والشرق الإسلامي . وهو الكتاب الذي حصل به على درجة الدكتوارة في الآداب . وهذا الكتاب الذي يقع في ٤٥٠ صفحة طبع خمس مرات حتى تموز ١٩٨١ . وقد أخذ المؤلف رحمه الله على عاتقه أن يغوص في أعماق تلك المجتمعات الحديثة غوصاً رفيقاً واعياً ، لأن الإسلام لم يُحَطِّمْ نواميسَها ونظمها وعقائدها وعاداتها ولم يقلبْها رأساً على عقب بل سار فيها السير الواعي الذي أمر به الشرعُ في قوله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ وقولِه ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ؟ .

وقد تتبع حركة انتشار الإسلام المذهلة في أراضٍ متعطشة إلى نور المعرفة ، فجرَّت وراءها حركةَ تعريبٍ واسعة . وواكبت حركةَ انتشار الإسلام ، حركةُ التعريب على نطاق واسع .. إلا أن هذه المواكبة اصطدمت في بعض المجتمعات الجديدة ، فَقَصَّرَتْ حركةُ التعريب عن حركة انتشار الإسلام . ومن خلال استقرائه الوقائع ، وجد المؤلف أن **اللغة الفارسية** قاومت اللغة العربية في بلاد الفرس مقاومة عنيدة . وقد أرجع فشل تعريب هذه البلاد إلى سببين : الأول أن المقاتِلةَ العربَ لم يكونوا يتجاوزون – يوم اسْتُخلِفَ سليمانُ بن عبد الملك عام ٩٦هـ – على حد تقدير المؤرخ البلاذري ، وهو حجة موثوقة ، أربعين ألفاً من مقاتلة البصرة وسبعةَ آلاف من مقاتلة الكوفة وسبعة آلاف من الموالي . وكان مَنْ وراءَهم من العرب في تلك البلاد لا يزيدون على أربعة أمثال هذا العدد .. وبذلك لم يكن العرب الموجودون في تلك البلاد يزيدون عن ربع مليونٍ فقط ، في وسط تلك الامبراطورية الواسعة ذات الأمجاد الفارسية التليدة والمعتزة بماضيها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والذي يتتبع حركة التاريخ ، بعد الفتح الإسلامي إلى أزمنة متأخرة ، يلاحظ أن الفرس ظلوا على الدوام يرفضون الامتزاج بالعرب الذين اجتثوا قوتهم العسكرية في ميادين القتال ونشروا في بلادهم دينَهم الجديد .. ومن مظاهر رفض الامتزاج ، أنه حين كانت غالبية العالم الإسلامي تدين بالمذهب الشيعي في ظل الدولة الفاطمية ، ومنها بلاد الشام ، كانت فارسُ سنيةَ المذهب ... فلما قضى الأتراك السُّنَّةُ على حركة التشيع بانتصارهم على المماليك عام ١٥١٦ ، عاد المذهب السني إلى بلاد المسلمين .. غير أن الصفويين الفرس غيَّروا من قناعاتهم وتبنوا المذهب الشيعي وفرضوه على أتباعهم بقوة الحديد ... لكي يظلوا مجتمعاً متميزاً عن المجتمع العربي ...

أما السبب الثاني في فشل تعريب فارس ، فهو انقسام الفاتحين العرب في فارس ، وتخاصُمُهم فيما بينهم ، الأمر الذي حملهم على الاهتمام بأمورٍ أخرى غير التعريب ..

ومع ذلك ، فإن القرون التالية سوف تشهد فرساً استعربوا وأصابوا حظاً عالياً من الثقافة العالية والتأليف في مختلف علوم اللغة العربية ..

وليس بدعاً أن تأخذ اللغة العربية عن لغات الشعوب غير العربية التي أسلمت كثيراً من ألفاظها ، فاغتنت بها ووسعت قاموس ألفاظها . كما أنه من طبيعة الأشياء أن يأخذ الفاتحون العرب من الشعوب التي أخضعوها كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم بسبب المعايشة المشتركة ، بعد أن كيَّفوها وَعَدَّلوا فيها لتنسجم مع أحكام الإسلام ، الذي أصبح دينَ الدولة .. وقد كان للزَّواج المُخْتَلَط أثر كبير في ولادة أجيال جديدة ، تشَرَّبَتْ الواقعَ الجديد ونشأت في أحضانه ، كما كان للسبي وعيش السبايا في بيوت الفاتحين العرب مثل هذا الأثر في تطوير العادات العربية .. وقل مثل ذلك عن عيش الجنود المقاتلة من عرب وغير عرب في ثكنات عسكرية عيشةً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مشتركة .. ويذكر التاريخ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وُفِّق توفيقاً كبيراً في عدم تقسيمه الأراضي المفتوحة بين الغزاة العرب باعتبارها من الفيء ، ولكنه – على حد قول الدكتور شكري – لم يوفق في الحد من اصطناع السبي ، خاصة وأن الإسلام شجع كثيراً على عتق السبايا وجعل ذلك قربى من الله ، واعتبر المحررات كالعربيات زوجاتٍ مؤمناتٍ لهن ما لسائر الزوجات المؤمنات من حقوق كاملة ..

وكان من آثار هذا الإختلاط تسرُّب اللكنة الأعجمية إلى الألسنة . فالصاد مثلاً عسيرة اللفظ على الأعاجم ، فكانوا يلفظونها سيناً . فيقولون : (ما تسنأ بدلاً من : ما تصنع ..) . وكانوا يخطئون في تركيب الجمل نفسها حتى لتستعصي على الفهم . ويروي صاحب البيان والتبيين (ج٢ ص٢١٣) أن امرأة من الأعاجم قالت لولدها : « جردان دخل في عجان أمك » تريد أن الجرذ أكل من عجينها .. وهذا وضع طبيعي ولا عيب فيه ، فنحن حين درسنا اللغات الأجنبية ، كنا نرتكب مثل هذه الحماقات .. غير أن كثرة الأعاجم واختلاطَهم القوي بالعرب ، أثرا في اللغة العربية أثراً سيئاً ..

وقد عرفت حركة الفتوح أدباً جديداً تَمَثَّل أكثرَ ما تمثل في **تمجيد البطولات** في خوض المعارك ورفع راية الجهاد والاستشهاد في سبيل الله ونشر الدعوة .. ولكن حين تَدْخُلُ السيوفُ في أغمادها ، ويضمِّدُ المقاتلون جراحهم في أرض الغربة يأخذهم الحنين في هدأة الليل إلى الأب والأم والزوجة والولد في أرض الوطن ، فيترجمون عواطفهم هذه بأبيات أو قصائد أخذت تعرف **بشعر المواجد** .

غير أنه بعد أن يتحقق النصر ويسود السلم ، عن رضى أو عن كره ، تكون الهجمة العسكرية قد حققت أهدافها .. عندها يأخذ المقاتل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالاندماج في الحياة المدنية .. ويُخْلِدُ إلى راحة الأسرة ، التي أنشأها كثيرٌ من العرب في أرض الغربة .. وعندها تعود الشاعرية إلى القلوب تَحْفِرُ في ثناياها مساربَ لينابيعَ صافيةٍ تترقرق على جنباتها شعراً غزلياً ناعماً متأثراً برقة البيئة الجديدة ، وهي على كل حال بيئةٌ بعيدة عن بكاء الأطلال وبعر الآرام أو مراجيع الوشم في نواشر المعصم .. غير أن السياسة ما لبثت أن حركت عقاربها ، في صورة أشعار نظمتها الفرق الدينية في الدعوة إلى مبادئها ..

ثانياً ـ المؤلفات الأدبية

في نطاق فعاليات الدكتور شكري الأدبية ، نجد كتابين من أجمل وأصفى ما دبجته يراعته ، وهما :

١ ـ مناهج الدراسة في الأدب العربي .

٢ ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام .

وإلى جانبهما نجد له :

٣ ـ أبحاثاً أدبية كثيرة .

٤ ـ تحقيق بعض الكتب القديمة ونَشْرها .

وسوف أتناول تباعاً وبإيجاز هذه الأعمال في أربعة مباحث ، هي التالية :

١ ـ مناهج الدراسة الأدبية

خصص الدكتور شكري هذا الكتاب النفيس لدراسة « مناهج البحث في أدبنا العربي والطرائق التي غلبت على الدراسات الأدبية والنظريات التي تتحكم فيها من ورائها ، فتوجهها هذه الوجهة أو تلك » ، كما يقول .

ومرتكز بحثه أنه « خير للأدب أن ينطلق فيسعى إلى منهج جديد يضبط دراسته ويوحِّد وجهته ويجعله ينشد وجدانه في هذه المدارس الفنية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العميقة بدل أن ينشدها في مظاهر خادعة من وحدة العصر أو وحدة المنشأ والوطن أو وحدة الغرض والموضوع .. » .

والذي أقلقه وجعله يفكر في واقع دراسة الأدب العربي ، التي لا تزال ضئيلة الحظ من النماء ، قليلة النصيب من النضج « أن الدراسات الإنسانية الأخرى تتقدم ... أما درس الأدب فلا يزال في مكانه من البساطة حيناً والغموض حيناً آخر ... » .

وعلة هذا التأخر ترجع إلى فقر المناهج .. ومن هذا المنطلق خصص هذا الكتاب لدراسة ست نظريات تعاورت دراسة الأدب العربي حديثاً ، لكي يخلص من هذه الدراسة الشاملة إلى المناداة بطريقة جديدة أخذت عليه مجامع قلبه ..

وفيما يلي نظرة موجزة في هذه المدارس مستقاة من دراسة الدكتور شكري :

١ ـ النظرية المدرسية

وهي تقسم الأدب العربي إلى خمس مراحل متطابقة مع تقسيم العصور السياسية . وأبرز ممثليها أحمد حسن الزيات والشيخ أحمد الإسكندري . وبموجبها يقسم الأدب العربي إلى عصر الجاهلية وعصر صدر الإسلام والدولة الأموية وعصر الدولة العباسية بما فيه الأدب الأندلسي ، وعصر الدول المتتابعة ، وربما خُصَّ عصر النهضة الأخيرة بتسمية مستقلة .

ويأخذ الدكتور شكري على هذه المدرسة أنها تربط بين السياسة والأدب وتعلي كثيراً من شأن العامل السياسي . كذلك فإنه يلومها على هذه المطابقة غير الصحيحة بين العصر السياسي والتيار الأدبي الذي لا يمكن أن يُحَدَّ ببدء عهدٍ سياسي وانقضائه .. لأن الأدب لا يمكن أن يكون ظلاً لنوازع السلطان وأصحابه .. وإذا كان صحيحاً وميسوراً أن نقول إن الدولة العباسية قامت عام ١٣٢هـ ، فإن من الصحيح أيضاً أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نقول إنها كانت في أذهان بني العباس منذ أن اختلف المسلمون في سقيفة بني ساعدة واستمرَّتْ حية في قلوبهم حين اشتبكت قوات علي ومعاوية .. وإذن فعام ١٣٢هـ . ليس أكثر من الميلاد الرسمي للدولة العباسية ، وهو تاريخ لا يمكن أن تلتزم به الدراسة الأدبية ، كبداية عهد جديد للأدب ..

كذلك يؤخذ على هذه المدرسة تشبثها بالعامل الزمني **ونسيانها أثر العامل المكاني** . وهو فرق نلمسه في التباين بين شعر البادية وكثبان الرمال والدِّمَن وبين الشعر المتردد في جنان الشام وأرض السواد ودجلتها وأنفاس الحضارة في بساتين قرطبة ووادي آش ..

وقد نبذ المؤلف هذه النظرية لأنها أصيبت بالجمود ووقفت بالدراسة الأدبية عند القمم الشامخة من كل عصر ، دون أن يكون للمقلين كبير نصيب من الدراسة والاهتمام .. في حين أن دراسة واحد من المقلين النوابغ تكشف حسب تعبير الدكتور شكري « عن كثير من الخبيء المستغلق في تاريخنا الأدبي » .

وإذا كانت هذه النظرية قد أدت خدمة جلى لدراسة الأدب ، بأن أقامت له بنياناً كان جديراً بالإعجاب : فإن من حق التطور أن يسعى إلى إقامة بنيان جديد على أنقاض بنيان لم يصمد لضربات الفكر ، يكون من شأنه تفادي عيوب النظرية المدرسية .

٢ ـ نظرية الفنون الأدبية

يبدو أن أول من حاول بذر بذرة هذه المدرسة ، المرحوم جرجي زيدان . وقد كان هذا البحّاثة الكبير طليعة أصحاب النظرية السابقة ، غير أنه عمد في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » إلى تبني أسلوب غير أسلوب التقسيم التاريخي ، ويعتمد الأسلوب الجديد ـ أو النظرية الجديدة ـ إلى اعتماد تقسيم النشاط الأدبي على مواضيعه أي فنونه المختلفة ، كالحماسة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والغزل وشعر الطبيعة والفخر والهجاء والتصوف ... وحين ندرس واحداً من هذه الفنون فإننا نكون ملزمين حكماً بدارسة المشاهير الذين نبغوا في هذا الفن ، وكذلك الأدباء الذين لم ينالوا درجة عليا من الشهرة ، حتى يتاح للباحث الإحاطة بجميع عناصر هذا الفن ويستوفِيَهُ . وبذلك ينال المغمورون حقهم من الدراسة ...

ولكن الدكتور شكري يأخذ على هذه النظرية أنها تهتم **بالفن** ، **وتهمل الفنان** ، أي الشاعر أو الناثر ، فلا تُعْنى بشخصيته أو سيرته الذاتية بصورة مقبولة ..

كذلك فإن الشعر القديم لم يكن يعرف وحدة القصيدة ، إذ كان الشاعر يجمع في قصيدة واحدة مجموعة من الفنون المتعددة المواضيع ، مثل البكاء على الأطلال ومدح الجواد ووصف الحرب وأبطالها وآثارها المدمرة .. والفخر بالقبيلة . وذم المناوئين .. وربما ضمنها أيضاً بعض مواعظ استقاها الشاعر من حياته الطويلة وخبرته العملية ...

ولم يستقم أمر هذه النظرية ، فقال قائلون بنظرية أخرى ، هي :

٣ ـ نظرية الجنس

مرتكز هذه النظرية أن العرب حملوا راية الإسلام من جزيرتهم إلى بحر الظلمات فأكناف الصين .. كما حملوا إلى هذا العالم الفسيح اللغة العربية .. وكان في هذا العالم أقوام أخرى ، كانوا موجودين في أماكنهم قبيل الغزو الإسلامي وهجرة الفاتحين العرب إليهم .. وأسلم كثيرون من أبناء هذه الشعوب وساهموا في بنيان الحضارة الإسلامية .. منهم عن قناعة ومنهم عن مصلحة ..

ويشهد التاريخ على أن هذه الشعوب لم تَذُبْ في البوتقة العربية ، بل ظلت تحتفظ بجذورها وكثير من رواسبها النفسية والثقافية والمذهبية ..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن منطلق هذه الفوارق العرقية ، دعا بعض الباحثين إلى دراسة الأدب العربي على أساس الأجناس .. فندرس الأدب العربي الذي تفرد به الأدباء العرب ، وندرس الأدب العربي الذي صاغه الأدباء الفرس بالعربية ..

ولم تظفر هذه الدعوة باستجابة جدية ، لأنها تنطلق من مفهوم غامض هو أثر الوراثة العرقية في النتاج الأدبي .. كذلك فإن الإسلام ساوى بين المسلمين في الحقوق والواجبات ، ولم يضيق في الزواج على عرق دون آخر .. فالمسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم .. وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى .. وقد اندمج المسلمون بعضهم في بعض اندماجاً واسعاً ، بحيث لم يعد ميسوراً القول بوجود شاعر من عرق صاف ، وآخر من عرق هجين .. فقد تصالبت الأعراق تحت لواء الإسلام ، وأخذ قول الرسول الأعظم مداه الأوسع مع مرور الزمن : « يا بني هاشم لا يأتوني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم .. » .

٤ – واستعرض الدكتور شكري **بعد ذلك النظرية الثقافية** ، التي تتطلب دراسة الأدب العربي بعد أن امتزجت الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية كالفارسية واليونانية والهندية .. ومن أبرز نماذجها امتزاج الثقافة العربية والثقافة الفارسية في عبد الله بن المقفع ، وامتزاج الثقافات العربية والفارسية واليونانية في الجاحظ .. فقد حذق كثير من الأدباء ، وخاصة الفرس منهم الأدب العربي والأدب الفارسي ، فجمعوا بين محاسن الثقافتين . وهكذا نشأ أدب جديد يحمل خصائص مشتركة ومزايا جديدة ، هي أثر لهذا التزاوج الثقافي .

وينقل الدكتور شكري هذه الواقعة المعبرة . قال : يروى أن الرشيد أوصى أستاذ أبنائه الكسائي بما يلي : « يا عليُّ بن حمزة : قد أحللناك المحل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذي لم تكن تَبْلُغُهُ همتُك ، فروِّنا من الأشعار أعفَّها ومن الأحاديث أجمعَها لمحاسن الأخلاق ، وذاكرنا بآداب الفرس والروم .. » . مما يعني أن دراسة الأدب يجب أن تُعنى عناية خاصة بدارسة الثقافات المختلفة التي تعاونت على الإنتاج الأدبي .

ونظن أن هذه النظرية تأخذ اليوم مداها الواسع في اختلاف المناهل الأجنبية التي ينهل منها أدباؤنا ومفكرونا أثناء دراساتهم في الجامعات الأجنبية . فجماعة السوربون يتحسسون برقة الأدب الفرنسي وجماعة اكسفورد يتذوقون عذوبة الآداب الإنكليزية ، والذي درسوا في جامعات الاتحاد السوفيتي يستطيبون كتابات تولوستوي وديستويفسكي .. وهؤلاء وأولئك ينقلون إلى بلادهم وتلامذتهم روائع ثقافاتهم الأجنبية .. وعن التفاعل الثقافي بين الثقافات المتعددة ينشأ أدب منفتح على أرجاء الأرض ..

ومع ذلك فإن الدكتور شكري لا يستمسك بهذه النظرية ، لأن التركيز في نظره على تضافر الثقافات يظل ناقصاً لأنه يتشبث بالقوالب المادية ويهمل شخصية الأديب ونفسيته . ومن أبرز عوامل الشخصية ، **العاطفة والخيال** . فهي نظرية تظلم الأديب « لأنها تهدر أثره الفردي في الإبداع الفني » .

وإذن فالنظرية الثقافية تصلح لدراسة تطور الحضارات واستقراء عناصرها المتمثلة في تزاوج الثقافات ، ولكنها لا تصلح وعاءً لدراسة الأدب بصورة عامة ، والأدب العربي بصورة خاصة ...

٥ ـ نظرية المذاهب الفنية

هذه نظرية مغرية ، موضوعها دراسة الأدب العربي وفق اسس الناحية الفنية التي تسود في عصر من العصور الأدبية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فابن رشيق مثلاً ، وهو من قدماء مؤرخي الآداب ، حاول أن يصنف الشعراء في أربعة زمر :

شاعر خنذيذ ، وهو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره .

وشاعر مُفْلِق ، وهو مجوِّد إلا أنه لا يروي لغيره .

وشاعر فقط ، وهو فوق الرديء بدرجة .

وشعرور ، وهو لا شيء .

ويأتي من المعاصرين الدكتور طه حسين ليبرز هذه المدرسة في كتابه الأدب الجاهلي . فهو يدرس زهيراً وأوس بن حَجَر والحطيئة وجميل بن معمر ، ويرى أنهم يشكلون مذهباً فنياً واحداً ومتكاملاً ، وخاصية هذا المذهب أنه يهتم باللفظ الرصين ويعتني بالأسلوب المتين ويجوِّدُهُ ويحفلُ بالعناصر المادية للتشبيه ..

ويمكن الاستفادة من هذه المدرسة في التعرُّف **إلى الشعر المنحول** . وهذا أمر مهم جداً ، لأن الشعر العربي لم يُدوَّنْ إلا بعد حياة الاستقرار ، بعد الفتوحات الكبرى .. وحين بدأ التدوين تدخلتْ العصبيات القبلية والعصبيات الشعوبية لاختلاق شعر مكذوب ينسبه مخترعوه إلى شاعر من الشعراء القدامى ..

فإذا طبقت النظرية الثقافية على شخصية شاعر وعرف الباحث عناصرها الإبداعية والفكرية ، جاز لنا أن نقول عن أبياتٍ إنها من شعره أو أنها منحولة عليه . ولكن هذا القول يصح من الناحية النظرية . أما من الناحية العملية ، فالجزم بنسبة الشعر إلى الشاعر لا يخلو من مجازفة غير مضمونة !.. ثم إنها كما ينتقدها الدكتور شكري تجازف بأن تنقلب الوسيلة عندها هدفاً والهدف وسيلة ، فتصنف المدارس الأدبية أولاً ثم تحاول أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تقيس بها الأدباء ثانياً وبذلك تنقلب إلى عمل خيالي فيه مجال كبير للظن ..

وهذا سبب يكفي للتخلي عنها والبحث عن منهج آخر ، أو نظرية أخرى ، هي :

٦ ـ النظرية الإقليمية

ومؤداها أن تدرس الآداب ، لا ككل في البلاد الناطقة بالعربية ، وإنما وفق التقسيمات الإقليمية ، فهناك الأدب المصري ، والأدب السوري والأدب المغربي . فمثلاً أحمد الإسكندري قسم دراسة الأدب العربي إلى قسمين :

حالة اللغة العربية وآدابها في الممالك الشرقية .

وحالتها في الممالك الغربية .

ويقول جرجي زيدان : « من القواعد الثابتة في علم الطبيعة أن للإقليم تأثيراً في أخلاق الناس وأبدانهم فيختلفون صحة ونشاطاً وبديهة وذكاءً باختلاف الإقليم .

وبناء على اختلاف الأمزجة باختلاف الإقليم فقد امتاز كل اقليم من بلاد العرب بباب من أبواب الشعر . فاشتهر أهل الحجاز بالرقة وأكثر شعرهم الغزل ، واشتهر أهل نجد بالبلاغة ، وقد ذهبوا في الشعر كل مذهب .. » .

وعلى هذا الأساس قسم الشعراء إلى سبعة أقسام بحسب مواطنهم : شعراء مصر والشام والعراق والجزيرة وفارس والأندلس والمغرب وجزيرة العرب .

وكان من حظ الدكتور شكري أن الذي أشرف على رسالته هذه أستاذ عرف بتشدده الإقليمي هو الأستاذ أمين الخولي . ولكن عناد الأستاذ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم يستطع ليَّ زند الطالب ، فكان أن تابع الدكتور شكري سيره في نظرته القومية إلى الأدب العربي .

وللأمانة فأنا عَلَّمْتُ طيلة حياتي أهمية البيئة الإقليمية في حركة الإجرام بعد أن استهوتني لفترة نظرية الوراثة .. ولكن شتان بين الانحراف الخلقي من البيئة الفاسدة ، وبين حركة ابداع منطلقة من روح شاعرية تتحسس بالواقع دون شك ، ولكنها تظل تحوم في الأجواء العليا ، التي هي مواطن الوحي والإلهام ..

وتعود النظرية الإقليمية في جذورها الأدبية إلى الفرنسي الأستاذ Taine ، ومنطلقها قاعدةٌ مادية هي أن لكل واقعة سبباً ، ولكل نتيجة مقدمةً . ولكن إذا صح تفسير القوانين المادية بهذه الحتمية المتزمتة ، فإن في الحياة الأدبية نوازعَ وأخيلةً وعواطفَ وإلهاماتٍ تتمرد على كل القيود والقوالب المادية .. وفي أيامنا نجد بروز نظرية نفسية في تعليل الإجرام ، إلى جانب نظرية البيئة التي يرفع لواءها عالياً الأستاذ الأمريكي سذرلاند .. وإذن فالعناصر الذاتية تبقى في حياة الأدب أقوى المؤثرات الإبداعية ...

ونحن الذين نشأنا على الإيمان بوحدة العرب ، نشعر بشيء من الصدمة والإمتعاض حين يراد أن يفرض على مشاعرنا مفهوم إقليمي لا يمكن أن تستسيغه نفوسنا .. وعلى أساس هذه النظرة ، قلب الدكتور شكري ظهر المجن لهذه النظرية أيضاً ..

إذن ، طالما أن كل هذه النظريات التي عرضنا لها لم تقنع المرحوم ولم تقنعْنا من بعده أيضاً ، فهل يجب أن تظل دراسة الأدب بدون منهج مقبول تسير عليه ؟ والجواب ! أبداً .. لقد نادى الدكتور فيصل بمنهج جديد ، خصص له القسم الأخير من كتابه .. وقد أوجز تعريفه له بقوله :

« وحدة في الهدف وكثرةٌ في الوسائل » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذا المنهج يدعو إلى الافادة من النتائج التي وصلت إليها المدارس السابقة والحقائق التي توصلت إليها .. بحيث إنها تتعاون وتتضامن تضامناً مثمراً ، دون أن يخلط المنهج الجديد بين تلك المدارس أو يمزج بينها مزجاً أعمى ..

وهو يُبْقي على كل نظرية ، ويعمل على الانتفاع بما حققته ، مع بقائه مخالفاً لها في الأصل ..

وهو يعترف بأن هذا « المنهج الجديد » ليس منهجاً جديداً كل الجدة « ولكنه هذا التفاعل الذي تحققه المناهج المختلفة بعد توجيهها ولفتها هذا اللفت الخاص والخروج بها من منطقة الاستئثار الضيق بالدراسة الأدبية ، إلى منطقة التعاون الواسع » (ص٢٢٦) .

« ... إنه نوع من التركيب الذي يعتمد الإبداع وأسلوبَ الجمع الذي يستند إلى الخلق ».

ولست أدري إذا كانت المناسبة مواتية هنا ، لأتساءل : عما إذا كان الدكتور شكري يدعو إلى مذهب انتقائي بين المذاهب الأدبية éclectisme نحن نتبناه في نطاق العلوم الجنائية ، وقد علَّمناه في الجامعة قرابة نصف قرنٍ خاصة بعد أن استقرت النفس وهدأت ثورة الشباب وجموحه ...

وهذا ما انتهى إليه :

« نحن نرحب بدراسة أثر الأقاليم الإسلامية في أدبها .. ونحن نفرح بالتعرُّف الصادق إلى خصائص الجنس عند شاعرٍ أو كاتب .. ونحن نُكْبر دراسةَ الثقافات وتفاعلها وما أَلْقَتْ على الأدب من ظلال وما أغدقت عليه من فكر . ونحِسُّ لذلك الأَثَرَ في نشأة مذاهبَ فنية جديدة ، ونحن نتناول الدراسة الزمنية وما يكون من هذه الصلة بين الشعر والسياسة .. ومن هنا لم يكن المنهج الجديد قسيماً للمناهج السابقة ولا خصماً لها ، ولكنه توجيهٌ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتتويجٌ لها وتركيبٌ يبدع النتائج التي تصل إليها » .

ولكنه يشترط أن تُعتبرَ القضيةُ الأدبية أصلاً ، فلا تكون مثلاً مرتبطةً بعجلة السياسة ، كما يبدو من تعاليم النظرية المدرسية .. أي أن يكون جوهر الدراسة الأدبية هو هذه الظاهرة الأدبية بالذات ، وليس حوادث السياسة وعمل الإقليم وأثَر الثقافات ..

أما القضايا الجانبيَّةُ ، كالاقتصاد والواقع الاجتماعي والسياسي ، فتكون قضايا جانبية مساندة (أي مسعفة كما يقول ص ٢٣٠) ..

ولذلك « فإن المنهج الذي يجب أن نصطنعه يقوم على هذا الانتقال من الفردي إلى العام ومن الجزئي إلى الكلي .. فندرس الأديب أو الشاعر في كل أوضاعه وألوانه ونحيطُ بكل مظاهره وصوره ونتعمق عوالمه الداخلية ونَرْصُدُ كلَّ أحاسيسه . فإذا نحن نكشف عن هذه الروح التي سادته والمُثُل التي أظلته .. » .

٢ – تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام

الحديث عن الغزل يظل حديثاً جذاباً ، محبباً إلى القلب ، أثيراً إلى العواطف .. إنه خلجاتُ الهوى في أعماق النفس ، ولوعةُ الشوق تترقرق على مرارة الحرمان . ويكون الغزل أحلى إذا تحدث عنه مؤلفٌ عُرِف بعواطفه الدينية القوية واستمساكه بالقواعد الشرعية ...

وقد بحث الدكتور شكري هذا التطور بحث العالم الموضوعي لرسم مساره ، وإبراز الفوارق بين عصرٍ لم يكن يردع الشاعر فيه رادعٌ ، وعصرٍ كان على الشاعر فيه أن يعرف أنه يتحرك بين الحلال والحرام ، وبين المباح والتعرُّض إلى حد القذف ...

والغزل في جانب منه حسي ، وكان الغالب في الجاهلية ، ولكنه في جانبه الروحي نفحةٌ سماوية ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد خصص الدكتور شكري كتابه المتألق والمتأنق ، لدراسة تطور الغزل العربي من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة ، من الذي قالت له فاطمة وقد مال بهما الغبيط :

« عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل » ...

إلى عمر بن أبي ربيعة .. الذي نقل عنه الرواة وهو يحتضر أنه أقسم بالله على أنه لم يرفع ثوبه على حرام .. أي أن غزله كان نفثات قلبٍ موجع يتغذى بالأوهام ... والكتاب كبير الحجم نسبياً يقع في ٥٨٤ صفحة وثلاثة أبواب خصصت للغزل الجاهلي والغزل في عصر صدر الإسلام والغزل في العصر الأموي . وقد برهن المؤلف عن تمكن من النصوص الأدبية ، وطاقة عجيبة على تحليلها واستخراج أعمق المعاني منها .. فهو يأخذ النص ، كَمَشَاهِدِ الارتحال والتحمل ، ووصف المحاسن ، ويتقصَّى هذه الفنون في شعر عددٍ من مشاهير شعراء الجاهلية ، ويخلص إلى القول بأن الغزل الجاهلي يَتَّصِفُ بأنه غزلٌ تشبيهي يُعْنَى بالمظاهر الخارجية ، ومنه ما يمتاز بالدِّقة ومنه ما يظل سطحياً .. والمرأة عند الجاهليين شيء هام في حياتهم العاطفية والجمالية .. وجمالها هو الصورة المثلى للجمال (ص١٧٨) .. وفي الحديث عنها كان امرؤ القيس مثلاً يتمتع بجرأة متناهية في القول الماجن .. وكان عنترة يتغزل باحتشام في عبلة ، لا يُسِفُّ ولا يترخص في القول ..

وجاء العهد الإسلامي بمفهوم جديد عن الغزل ، اختار له الدكتور شكري نموذجاً من قول ابن قيم الجوزية في تحميدة كتابه :

« الحمد لله الذي جعل المحبة إلى الظفر بالمحبوب سبيلاً .. وأثار بها الهمم السامية والعزمات العالية إلى أشرف غاياتها تخصيصاً لها وتأهيلاً » . وإذن فالحب في الإسلام – على حد قوله – ليسَ قَصْرَ هذه العاطفة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السامية على ارواء الهوى واشباع الغرض .. وإنما يجب أن يكون قوة حافزة ودافعة إلى تحقيق غايات الدين من إعمار المجتمع وإنشاء الأجيال المؤمنة ..

ويبدو لنا أن الغزليين الإسلاميين لم يَقِفوا على هذا الفهم ، فقد انشطروا إلى شعراء أحبوا محبوباتهم حباً عذرياً وشببوا بهن إرواءً لعاطفة متقدة لم تُوَجَّهْ إلى غير الناحية الفنية المثالية ، كجميل بن معمر ، وإلى شعراءَ اتخذوا من الغزل مطية لإثبات شاعريتهم القوية ، ولم يَقْصِرُوا حبهم على بثينة والأخيلية ، بل عددوا النساء اللواتي تغزلوا بهن ، وتخلوا عن الأطلال ، وتمثلوا حضارة عصرهم فانعكست في هذه الموسيقية الطلقة الخفيفة التي تنطق بها قصائدهم ، وما أحلى ما قاله عمر بن أبي ربيعة في هذه الأبيات العفيفة :

نظرت إليها بالمحصَّب من منى ... ولي نظر لولا التحرُّج عازمُ
فقلت أصبح أم مصابيح بِيعة ... بدتْ لك تحت السَّجْف أم أنت حالم
بعيدة مهوى القُرط إما لنوفلٍ ... أبوها ، وإما عبدُ شمس وهاشم

ويأتي على رأس هؤلاء المجددين عمر بن أبي ربيعة ، الذي خصه الدكتور شكري بدراسة عميقة ، وخاصة رائيتَه المشهورة ، بلغت أكثر من ثلث الكتاب ..

ويكفيني أن أقول في هذا المؤلف الرائع إنه عمل إبداعي حقاً ، ما أظن أن أحداً من المؤلفين في الأدب سبقه إليه .. وليس من الضروري أن نتبنى وجهةَ نظر المؤلف دون نقاش .. في كل ما قاله عن الغزل .

ثالثاً ـ أبحاث أدبية أخرى

وهذه الأبحاث كثيرة تناول فيها عدداً من المواضيع ، التي تتصف بأنها تتدفق من ينبوع ثر .. أذكر بعضاً من عناوينها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١ – شفيق جبري الشاعر والشعر

ويقول عنه « إنه كان مشدوداً إلى ثروة أدبية عربية ، وكان مزوداً بتراث كبير . وهو ينفي عن أدبه وجود الرومانتيكية التي نقلها بعض الأدباء من الغرب . وجبري ، العربي الفخور بعروبته ، يطرب ليوم الجلاء فيقول :

أتكذب العين والرايات خافقةٌ أم تكذب الأذن والدنيا أغاريد

٢ – البيان النبوي

وهو دراسة نشرتْها وزارةُ الشؤون الدينية الجزائرية بحث فيها أشكال البيان النبوي (الأحاديث الشفوية والرسائل المكتوبة والخطب المرتجلة) وأبرز القيم التي يتضمنها (دينية وأخلاقية واجتماعية وشعورية) ..

وقد قال في هذا البيان : « لقد تحقق له هذا المستوى الرفيع في الأداء ، وهذه الروعة في إخراج الكلام هذا المخرج أو ذاك ، وهذا الإعجاز المشتقُ من الإعجاز القرآني والمتصل به .. حتى أن الرسول أحسه من نفسه فسماه جوامع الكلم » .

٣ – مقالة في الأستاذ محمد كردعلي

٤ – مقالة في محمد جميل بيهم

٥ – مقالة في الدكتور ميشيل حنا الخوري

٦ – مقالة في الشيخ محمد بشير الإبراهيمي

٧ – مقالة في الأستاذ المجمعي عز الدين التنوخي

٨ – مقالة في السيدة المرحومة عادلة بيهم الجزائري

وهذه سيدة فاضلة رائدة عملت بكل كرامة وثبات على نشر تعليم المرأة وتحريرها في اطار المُثل الروحية السامية .. وقد قال فيها الدكتور شكري ما يلي : « لا بد أن تأخذ المرأة العربية مكانها .. لا بد أن تخرج من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إسَارِ الجهل إلى ضياء العلم ، ومن ربقة التأخر إلى أفق التفتح . ولا بد أن تخرج من ذلك في كثير من الحذر ، حتى لا تضل الطريق ولا تنزلق بها المزالق .. » .

وهذا قول جدير بالتأييد ، فتحرير المرأة ضرورة دينية وقومية واجتماعية ، وهو يعني تمكينها من ممارسة حقوقها الإنسانية والقانونية .. ولا يعني أبداً الانحلال والفساد ..

٩ ـ مقال عن خير الدين الزركلي الشاعر الرقيق . فقد درس شعره وأشاد بموسيقيته وامتدح عاطفيته الجياشة .. وفيما يلي أبيات اختارها من ديوانه الدكتور شكري :

يَجْني وأشكُرُ في الهوى يَدَهُ ... وطنٌ شَقيتُ به لأُسْعِدَهُ
آليتُ ، لا باليتُ بي ألماً ... وبه دمٌ حتى أضمِّدَهُ
يومي له ، وغدي له هبةٌ ... وعساي أحْمَدُ في غدي غَدَه
كم ليلةٍ سامرتُ أنجمها ... مترقباً في الشرق فرقدَه
وبح السياسة في تقلبها ... يسلو الحليمُ بها تجلده

١٠ ـ مقالة عن الشاعر القروي ...

وللقروي مكانة خاصة في نفسي ، ليس هنا مكان الإشادة بها ...

١١ ـ دراسة مطولة عن كتاب « روح القدس في محاسبة النفس » لابن عربي .

١٢ ـ الصحافة الأدبية . وهي دراسة مفصلة عن مجلة المجمع العلمي العربي في عشر محاضرات ألقاها عام ١٩٥٩ على طلبة معهد الدراسات العالية في القاهرة .

١٣ ـ المصلحون ، وهي مقالة بعنوان « بين تشرين الذي كان وتشرين الذي يكون » درس فيها دعوات الإصلاح التي نادى بها محمد عبده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ورشيد رضا وابن تيمية وساطع الحصري ، وفيها هجوم شديد على النَّعَرة الإقليمية ..

١٤ ـ ثلاثة أحاديث في الإذاعة عن كتاب الثعالبي .

وقد قال الدكتور شكري عن هذا الكتاب :

« إنه يتناول لوناً من ألوان التعبير الفني الذي يَعْتَمِدُ على عَقْدِ جملة من المشابِهات بين جملة من الأشياء ، لا يبدو أن بينها من الصلات ما يسمح بإقامة هذا التشابه . ولكن الشاعر بموهبته الفنية قادرٌ على أن يلتقط هذه المشابِهات ثم يعرضها على الناس » .

وفيما يلي مثل اختاره الثعالبي من شعر أبي تمام لتوضيح الفكرة :

ما اليومُ أولُ توديع ولا الثاني ... البينُ أكثرُ من شوقي وأحزاني

دَعِ الفراقَ فإنَّ الدَهرَ ساعَدَه ... فصار أملكَ من روحي بجثماني

بالشام قومي وبغدادُ الهوى وأنا ... بالرقمتين وبالفسطاط إخواني

وما أظن النوى ترضى بما فعلتْ ... حتى تجاوز بي أقصى خراسان

خَلَّفْتُ بالأفق الغربي لي سَكَناً ... قد كان عيشي به يحلو بحلوان

رابعاً ـ كتب قديمة حققها

هذه كتب قديمة ظفرت بولع الدكتور شكري وعنايته ، فعمل على إخراجها سليمةً من العيوب مبرأة من التصحيف والتحريف . وهذه الكتب هي :

١ ـ مقدمة المرزوقي في شرحه لحماسة أبي تمام .

٢ ـ خريدة القصر وجريدة العصر للثعالبي (أربعة أجزاء) .

٣ ـ ديوان الشاعر الزاهد أبي العتاهية ، مع أخباره .

٤ ـ ثلاثة أجزاء من تاريخ مدينة دمشق ، لابن عساكر .

٥ ـ الوافي للصفدي ، الجزء الخامس عشر .

٦ ـ ديوان النابغة الذبياني (صنعة ابن السكِّيت) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا بالإضافة إلى سلسلة من المقالات لم ترد في هذا السرد ، في مجلتي المجمع والمعرفة . وقد قدم لائحة بها الدكتور عدنان الخطيب في دراسته الممتازة بعنوان « شكري فيصل وصداقة خمسين عاماً »[1] .

وأود أن أشير إشارة خاصة إلى عمل كبير قام به الدكتور شكري هو **جمعه أهم أعمال الدكتور طه حسين** في ثلاثة أجزاء كبيرة ، انتقاها وأشرف على طباعتها . والذي دفعه إلى هذا العمل وفاؤه لأستاذه ، وهو المعروف بالوفاء ، ورغبته في وضع كتاب نفيس تحت أيدي الأدباء العرب .

وهاكم ما قاله عن طه حسين في مقال نشره في مجلة المعرفة (عدد تشرين الثاني ١٩٧٤) :

« أَجَلُّ هو في عيني وفي نفسي من أن أتناول حياته ببحث ، أو أن أعرض لكتاب من كتبه بدراسة ، أو أن أتوقف عند جانب من جوانب أدبه بالتحليل ... فلم يكنْ عندي المؤلِّفَ ولا الباحث ولا الناقد ، ولم يكن عندي الأديبَ الذي لا يُجارى ، وصاحبَ البيان الذي لا يُضاهى .. وإنما كان قبل ذلك الأستاذ .. ولا يحتمل وفائي لأساتذتي أن ألقاهم بغير النظرة الحييَّة . إني لأغضي حياءً منهم وتوقيراً لهم .. » .

خامساً – العروبي الإسلامي

أشعر بأن دراستي هذه تبقى ناقصةً ، إذا أنا اكتفيت بعرض أعمال الدكتور شكري دون أن أتحدث عن قناعاته الشخصية ، كما تظهر من كتاباته . وأبرز هذه القناعات ، العروبة والإسلام ، والربط بينهما ربطاً عضوياً لا انفصام له . فمن هذين الينبوعين الثَّرَّيْنِ ، تفجرت عدة دراساتٍ على جانب كبير من الغنى واستشراف آفاق المستقبل .

١ – **ففي موضوع العروبة** ، نلمس إيماناً راسخاً بوحدة العرب

(١) دار الفكر للطباعة ١٩٨٦ ، ص٤٨ و٤٩ و٧٢ و٧٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يتزعزع ، كما نلمس عاطفة مقاتلة في حب اللغة العربية والدفاع عنها . ويعرف كل من كان على صلة به ما كان يعتمل في صدره من قناعة وحدوية بدت ظاهرة على سن قلمه منذ أمسك به يافعاً ، وظل على إيمانه الذي لم يساوره شكوك ، حتى أسلم الأمانة راضياً مرضياً إلى الأجيال الكثيرة من طلابه في شتى أرجاء الوطن العربي . وليس من عجبٍ في ذلك ، فقد كان أبناء جيله من الذين عاشوا تحت كابوس الانتداب والحماية الفرنسيين والبريطانيين يقاتلون لمستعمرين بكل وسيلة متاحة .. وكان أساتذتنا وقادة النضال الوطني يعلموننا أن مقارعة الأجنبي المحتل دينٌ وشرف وفريضة ..

ولم يكن معقولاً أن يبقى الدكتور شكري خارج الحلبة . فقد عمل مع أعضاء عصبة العمل القومي ، وكانوا من خيرة شباب الوطن .. وكتب في جريدتها معرضاً نفسه لغضب الانتدابيين .. وحين أعلنت الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨ أصبح عضواً في الاتحاد القومي .. ثم اختير عضواً في مجلس الشعب الموحد . وحين وقع الانفصال في ليلة مشؤومة تداعى عدد من القوميين الوحدويين وشكلنا الجبهة العربية المتحدة من أجل إعادة ربط ما انفصم من الرابطة القومية .. وكان للجبهة قيادتان ، علنية وسرية .. وكان المرحوم أحدَ أعضاءِ القيادة السرية . وقد قاتل بالسيفين في سبيل إعادة دولة الوحدة ، ولكن كان للأحداث منطق آخر . ثم جمعتني به غِيَرُ الأحداث التالية خمسة شهور في المعتقل ، فألفيت فيه المؤمن الصابر على قضاء الله .

وكان رحمه الله يربط ربطاً قوياً بين قوميته وعقيدته ، ففي قناعته أن جميع الحروب والمآسي التي نزلت بهذه المنطقة ، بدأ بالحروب الصليبية ومروراً بالانتدابات الأجنبية وانتهاء بقيام إسرائيل ، إنما كان بسبب إسلامها أولاً واستمساكها بأهدابه .. وكان راسخ القناعة بأن هذه المآسي كانت قادرة على محق العروبة ومفاهيمها ، غير أنها إذا ظلت صامدة ولم تتمكن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الرياح العاتية من بعثرتها شذر مذر ، فإنما مرد ذلك إلى رسوخ الإسلام في النفوس ..

اقرؤوا له هذا المقطع من خطابه في حفل استقبال الدكتور أمجد الطرابلسي : « في سنوات الوحدة الثلاث ، وهي أحلى السنوات في تاريخ الوطن وأحفلها بتجاربه وأقواها أثراً في مستقبله ومستقبل العروبة ، كانت في آذاننا أصوات من كل فج وفي نفوسنا تطلعات في كل أفق وفي قلوبنا آمال هي أغنى الآمال ... كنا نشعر أننا نصوغ من جديد حياة العرب بعيداً عن إقليمياتهم وعن تخلفهم ، وكنا نحس أننا نصل ما كان انقطع من هذا التاريخ ، وأننا بدأنا رحلة الوحدة بعد رحلة الإستقلال ...

ولكن التجربة ، وارحمتاه للوطن المتعثر ، آلت إلى غير مصيرها الطبيعي الذي كان يجب أن يحكمها وانفرط العقد وفي العين دموع .. » .

وهذا المقطع من مقال له في مجلة المعرفة عن « الرومانتيكية العربية » (عدد كانون الثاني ١٩٧٤) :

« ولكن لماذا تظل الحركة العربية سلسلةً من المفاجآت يشتد تواترها ثم يضعف ، فإذا هي في مكانها ..؟ لماذا تتخذ هذا الطابع الرومانتيكي ثم لا تجاوزه إلى ما وراءَه من طابع عقلاني ..؟ » .

حتى وحدة ١٩٥٨ ، هذا الأمل الذي أعاد العرب من جديد إلى ساحة التاريخ ، وقهر للمرة الأولى – بعد صلاح الدين – تفرقهم ، حتى هذه الوحدة لم تعدم بعد ستة أشهر من كان يشرب الشاي في القاهرة ويقسم على قطعها .. هل كان تاريخ هذه المنطقة إلا هذه الحركة المتكاملة بين مصر والشام ؟ » ..

وأسأل : هل الذي بدأنا نسمعه من فترة قصيرة على ألسنة القادة في هذه المنطقة غير هذا الذي قاله الدكتور شكري ؟..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهل يلومه لائم ، حين يرفض تعبير « التضامن العربي » لأنه في نظره هرطقة وهل يقول قائل عن نظرته « بأن أي رفاه اقتصادي أو تقدم اجتماعي مستقل عن المجموعة العربية إنما هو رفاه مكذوب وتقدم خادع » بأنه ليس على صواب ؟..

ولن يجد المرء شغفاً صوفياً بحب اللغة العربية كشغف الدكتور شكري بها . وكان له نشاط ضخم في موضوع التعريب ، أي إعادة اللغة العربية إلى أهلها ، خاصة في البلاد المغاربية التي أفسدها فيها الاستعمار ، والجزائر أقبح صورة لما جنى فيها الاستعمار الفرنسي خلال قرن وثلث .. حيث حارب العروبة واللغة والإسلام حرباً لا هوادة فيها ..

ومن كتابات المرحوم في هذا الصدد ما يلي[1] :

« إن القَدْرَ الذي يحتاج إليه الوطن العربي من التقدم العلمي ومن شيوع المعرفة العلمية ومن تحديث الفكر المعاصر ، لا يمكن أن يتم إلا عن طريق اللغة العربية ». **وهو يعرِّف اللغة العربية تعريفاً شاعرياً** ينم عن احساس عميق بعظمة هذه اللغة ودورها الحضاري ، في كتابه « المجتمعات الإسلامية »[2] فيقول : « اللغة ليست إلا نسيجاً من أفكار وأنْظَار ، تزينه وتُحَلِّيه عواطف ومشاعر . ووراء الغلاف اللفظي لكل كلمة ، تستقر حقيقةٌ من الحقائق التي يؤمِنُ بها الشعب أو شحنةٌ من الانفعالات التي يخضع لها ..

والعقائد الكبرى والأساطيرُ والمُثُل ، إنما تتبلور جميعاً في ألفاظ اللغة وكلماتها ..

فلغتُنا ليستْ هذه الألفاظَ الجامدةَ التي تَتَضَامُّ فيها الحروف ، ولكنها

(١) في بحثه « الدراسات الإسلامية اللازمة لمدرسي اللغة العربية » الرياض ١٠-٣-١٩٧٧ .

(٢) ص٢٢٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه الأصوات العميقة التي تتركز فيها عواطفُنا وأفكارنا وتصوراتُنا البعيدة . ولكل صوتٍ منها شمولٌ عريض ومدى واسع ونفاذٌ خاص ، وفي أصدائه وحناياه تعيش المخلفاتُ الفكرية والعاطفية لكل القرون التي تقدمت قبلنا » .

وعنده أن عبء التعريب يجب أن تقوم به المجامع الثلاثة في دمشق والقاهرة وبغداد .

وتتلخص نظرته إلى واقع اللغة العربية في بحثه الذي قدمه إلى الندوة التي أقامها اتحاد مجامع اللغة العربية في عَمَّان في شهر كانون الأول ١٩٧٨ كما يلي :

١ ــ يجب أن تكون اللغة العربية واحدة على امتداد الوطن العربي .

٢ ــ وأنها قضيةٌ تمتد على تاريخ الوطن العربي في ماضيه وحاضره ومستقبله .

٣ ــ وعليها أن تتحدى اللغات الأجنبية ، لصد أخطارها من جهة ، ثم للتفاعل معها لمواكبتها في طريق التقدم ..

٤ ــ وهي وسيلة الجمع بين أبناء العروبة الذين عصفت بهم أيدي التمزق .

ولكنه لا يتردد في الدعوة إلى فتح النوافذ على لغتنا ، من أجل إدخال التجديد فيها . والتجديد يجب أن يقوم على ثلاثة أسس هي :

١ ــ طواعية اللغة ، وأفهم من هذا القول ، تخليصها من كل تعقيد يجعلها عسيرة المأخذ والاشتقاق .. أي مراجعة قواعد النحو والصرف بصورة خاصة .

٢ ــ يسر الأسلوب وتبسيطه .

٣ ــ الخلاص من الزخرف بصورة نهائية .

ولا أريد أن أمر مرور الكرام بالمبدأ الثالث ، وهو « **تفاعل العربية مع اللغات الأخرى** » ، لأن هذا المبدأ الأساسي يفرض علينا تقوية اللغة في مدارسنا الثانوية وفي جامعاتنا .. لا لكي ينجح الطالب في امتحان اللغة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأجنبية ، وإنما لكي تصبح لغة مراجعة ودراسة جديتين ، يُعَوَّضُ بها عن نقص المؤلفات العربية في جميع نواحي المعرفة ، من فلسفة وقانون وطب وعلوم وتكنولوجيا .. فليس سراً أن المكتبة العربية ، على امتداد الوطن العربي ، تشكو في هذه المراجع نقصاً لا يغتفر .. والمراجعة في اللغة الأصيلة تفوق قراءة الكتب المترجمة .. خاصة إذا كانت الترجمات سقيمة ..

٢ – **وفي موضوع الإسلام** ، أشير إلى أن الدكتور شكري مؤمن ممارس للشعائر الدينية . وكل الذين يعرفونه يعرفون أن باطنه في هذا كظاهره الطيب .. وهو كذلك من **دعاة التراث بصورة عامة** . ولقد وقفت عند هذه المسألة لأشير إلى أن المرحوم يريد من هذا التراث أن ينسجم مع مقتضيات التطور العلمي والاجتماعي . ففي بحثه الذي قدمه إلى ندوة مجامع اللغة العربية المنعقدة في عمّان عام ١٩٧٨ يقول مايلي :

« إذا كانت الحروب الصليبية وحروبٌ أخرى بعدها لم تُعْطِ الغربَ الأوربي ما كان يطمح إليه من تفوق ، فإن **الركودَ الإسلامي** أعطى هذا الغرب أثمنَ فرصة حين ساعد بضعفه على أن يجد المسلمون أنفسَهم في موقف التخلف . وقد حارب الاستعمار اللغة العربية لكي يضعف العقيدة الدينية .. » .

ومن شدة حرصه على سلامة العقيدة والتراث ، كان ينظر بحذر شديد إلى غالبية المستشرقين ، وخاصة الأوائل منهم . فقد كان يجد دراساتهم بعيدةً عن الموضوعيةِ في البحث ، وعن الطهارة في الهدف[1] ، لأن أبحاث الاستشراق تصب ، في نظره ، في دوائر وزارات الخارجية أو المستعمرات أو التبشير ...

وتقتضيني الأمانة العلمية ألا أذهب معه إلى نهاية تفكيره ..

فقناعتي أن هؤلاء المستشرقين الجواسيس هم القلة .. أما هؤلاء الذين

(١) مقاله « على هامش مؤتمر المستشرقين » الذي عقد في باريس عام ١٩٧٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أحبوا الحضـارة العربيـة وسـاعدوا في نشر كنوزها ، وألفوا عنها المؤلفات العميقـة والرائدة ، وعلَّمونا طرق البحث في تاريخنا وآدابنا ، فإنهم الكثرة الكاثرة .. ولقد عرفت من بينهم ، رحمهم الله ، من كانوا أساتذة لي ، وكانوا يعلنون عن ضرورة احتلال الحضارة العربية مكانها المرموق .. حتى أن منهم من شارك العرب في مظاهراتهم التي طالبوا فيها باستقلال الجزائر وفي قلب باريس ... ولن أذكر من أعمـالهـم الرائعـة إلا L' Encyclopédie de L' Islam ومؤلفـات بروكلمـان وبلاشـير و Gibb وغوستـاف لوبون وغولدزيهر .. وليس من حقنا أن نرميهم جميعاً بسوء القصد ، إذا توصلوا في أبحاثهم إلى نتائج لا نستطيبها ... والمرحوم لم يعمم القول فيهم جميعاً ، لأنه استثنى من سماهم « الأنقياء » الذين قال عنهم :

« وعلى هذا الطريق تلقى الذين يموتون وهم يقلبون صفحات الكتب بحثاً عن حقيقة ، والذين يبحثون عن أشباه الحقائق يميتون بها الشعوب » .

وحين عالج موضـوع ما يسميـه « **الصحوة الإسـلامية بين الواقع والطموح** » في بحث له تحت هذا العنوان ، قال :

« إن أبرز ما تَعْنيهِ الصحوةُ اللَّحاقَ بالركب الإنساني . إنها تتمثل في إنسـانٍ نائم خَلَّفته القافلة وراءها ، ثم صحا فوجد نفسَه في مثل حالة الضياع ... فمضى يسعى وراء الركب . وإني أرد هذه الصحوة إلى أنها مظهر من مظاهر التململ وأن لها أثراً تخديرياً » .

ويسوق عدة أمثلة على عدم صحة هذه الصحوة المزعومة .. الثورة الأفغانية والتقاطع بين أقطار الإسلام والدماء التي تسيل أنهاراً على حدود الديار الإسلامية ، والأُميَّة التي تصل إلى نسبة ثلاثة أرباع المسلمين ... ويتساءل « كيف نتحدث عن صحوة إسلامية إذا كنا لم نستطع أن نحقق الحد الأدنى الحضاري »؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويطالب بعد ذلك بقوة « **بالتحول إلى صحوة إسلامية فاعلة** » يجب أن نَعْنِي في نظره « تَعَمُّقَ الأساس التنظيري الذي جاءنا من عند الله .. تعمق فهمه وتعمقَ فقهه دون أي خروج عن نصوص القرآن الكريم أو السنة النبوية المشرفة أو ما التقى عليه إجماع المسلمين ..» .

وهذا في نظري هو العمل المثمر للتوفيق بين التراث ووجوب فهمه بنصه وبروحه ، في ظل مقتضيات العصر .. حتى يصح لنا أن نقول بحق : إن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان .. غير أنه يضع شرطاً جديراً بالتأييد ، هو الآتي :

« إن الحركة الإسلامية لا تتطلع إلى سلطة أو تحكُّمٍ ولا تسابق أصحاب السلطة والحكم عليهما . وعلينا أن نستخدم ما يسمونه الديمقراطية بأصح معانيها ، لأن الصحوة تريد أن يتاح للشعوب في حكومات الإسلام أن تحقق وجودها .. » .

وقد أوضح رأيه في موضوع ممارسة الديمقراطية في مقال له عن « حركات الاصلاح الاجتماعي في العالم الإسلامي »[1] قال فيه :

« وليس للشورى شكل واحد ثابت لا يقبل التغيير ، ولكنَّ لها مفهوماً ثابتاً لا يقبل جوهرهُ التغيير . والقرآن الذي أقر المبدأ لم يتناول **من قريب أو بعيد الشكل** . وقد حاول جمال الدين الأفغاني نشر مبدأ الشورى فحورب بشراسة . **أما العلمُ** فليس شرطاً من شروط النهضة بل هو النهضة بذاتها » .

وقد حَلَّقَ عالياً حين كتب في مقاله « نحو حضارة عربية جديدة »[2] مايلي :

« حين ننظر إلى أقطارنا العربية ... تُرَوِّعُنا مسافةُ هذا الخُلْف بيننا وبين الحضارةِ المعاصرة . وأقسى ما يروعنا أننا لا نصنع الحضارة ، وإنما نحن

(١) من كتاب وقائع ومحاضرات المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية والإسلامية .

(٢) نشره في مجلة المعرفة ، شباط ١٩٧٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نستهلك الحضارة التي يصنعها الآخرون .. لذلك يجب علينا أن نحقق هدفين متكاملين : اللحاقَ بالركب الحضاري والإسهامَ في قيادة هذا الركب ... وقد كان لنا ماضٍ حضاريٌّ متميز .. فلماذا يظل الوطنُ العربي خارج دائرة الإسهام الحضاري ؟ » .

ويضرب مثلاً على تقدم الشعوب التي كانت نائمةً فاستيقظتْ : اليابانَ « التي استطاعت أن تُحطم أسطورةَ التخلف الشرقي ، وتزرع في ملايين الملايين من الشرقيين خُضْرةَ الأمل » حسب تعبيره .

ولكن من الذي يعمل على بقائنا متخلفين ؟ في رأي الدكتور شكري المسؤول عن تخلفنا هي « هذه القوى غير المجهولة .. قوى أعداء الإنسانية الذين يؤمنون بالتمايز ويضعون الشعوب طبقات ... أولئك أكلة لحوم البشر الذين يختلسون ثروات هذه الشعوب ويُجْهضون ثوراتها .. » .

ونحن أليست لنا مسؤوليةٌ مباشرةٌ وضخمة في تخلفنا ؟ يقيناً لو أن الله مَدَّ في عمره فعاش أحداث ١٩٩٠ و١٩٩١ المبكية على الساحة العربية ، لكان أدخل تعديلاً جذرياً في تفكيره القومي وفي تحديد المسؤولية عن أسباب تخلفنا ...

وما هو سبيلُ سلامة العرب ومنطلقُ تقدمهم ؟ جوابه هو أنَّ دخول العرب التاريخ الحضاري يجب أن يبدأ **بتحريك الوحدة العربية** : « لأن الذين تلهيهم أو تقنعهم في الوطن العربي الممزق بعضُ المنجزات التي استطاعوا أن يحققوها ، فإن عليهم أن يَحْسِبوا قبل أن يفرحوا بما أنجزوا ، المدى الذي لا يزال يَفْصِلُ بينهم وبين الحضارة الموصَدَةِ مِنْ دونهم ..

وإذن فطريق الوحدة وحده بالنسبة إلى العرب هو الذي يمكن أن يكون إنْهَاءً لمرحلة القِرْبَةِ المقطوعة . ذلك أن الذي نعملُهُ لا يعدو كثيراً أن يكون وهمَ محاولةٍ لملء قِرْبَة مقطوعة ...» .

ومن عجب أننا نشهد اليوم ميلاد عملاقٍ ضخم في أوربا ، التي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تناست دولُها أحقادها القديمة والدماءَ التي سفحت بغزارة في ساحات الحروب قروناً طويلة واندمجتْ في مجموعةٍ اقتصادية كبرى ، وهي تعمل جاهدة على الذوبان في كيانٍ سياسي مُدْهش .. ومع ذلك فنحن ننظر كالمبهوت الذي لا يتعظ ولا يستوعب ...

وكل ما قاله الدكتور شكري في أسباب التخلف العربي بشيء من التعميم ، يتساوق خير تساوق مع الصرخات المدوية التي ارتفعت في عصرنا تطالب بتجديد الفكر العربي .. والفكر الإسلامي أيضاً ..

« فالشيخ محمد عبده قام وحده من بين رجال الأزهر بالدعوة إلى التجديد والتحرر من قيود التقليد ، فاستعمل عقله الحر في بحوثه ولم يَجْرِ على ما جَمَدَ عليه غيره من أفكار المتقدمين »[١] .

بل إن مفكراً إسلامياً من طلابنا في جامعة دمشق ، هو الدكتور فاروق النبهان يذهب أبعد من ذلك فيقول :

« ظهر في العصر الحديث لونٌ جديد من التفسير يختلف عن المدارس السابقة التي عرفناها . ويهتم هذا التفسير بالجوانب الأدبية والاجتماعية التي يشتمل عليها النص القرآني .. وقد لاقت هذه المدرسة قبولاً طيباً لدى الناس »[٢] .

ويضرب الأستاذ مصطفى الزرقا مثلاً ملموساً عن تطور التفسير الفقهي في أيامنا هو نص المادة ٢٢ من قانون الأحوال الشخصية . فقد قرر واضعو هذه المادة أن طلاق السكران والمدهوش والمكره لا يقع ، وكذلك لا يقع الطلاق ثلاثاً إذا تم بلفظ واحد ، كما أجازوا تفويض المرأة بتطليق نفسها . ويقول إن هذا التجديد جاء خلافاً لرأي الأئمة الأربعة أخذاً من فقه

(١) انظر الشيخ محمد حسين الذهبي ، المفسرون والتفسير ج٣ ص٢٢٠ .
(٢) في كتابه نظام الحكم في الإسلام ص٣٤٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الإمامين ابن حزم وابن تيمية رضي الله عنهما .

ومنذ العشرينات من هذا القرن أدرك فقيه كبير هو الأستاذ شاكر الحنبلي[١] مدى أهمية تحديد معنى الربا في الشريعة الإسلامية ، فقرر في دراسة مُدْعَمةٍ بالحجج بأن الودائع المصرفية لا تدخل في مفهوم الربا المحرَّم ..

وهو مذهب أيده الدكتور معروف الدواليبي في دراسته التي قدَّمها عام ١٩٥٢ إلى مؤتمر إسلامي عقد في باريس . وجاءت فتوى المفتي العام للجمهورية المصرية الشيخ سيد طنطاوي منذ وقت قريب تفتح الباب أمام تحرير الرأس المال الوطني وتمكين المصارف المحلية من القيام بأعباء التنمية ودعم الصناعات وتأسيس شركات كبرى تقوى على المزاحمة في مصطرع دولي لا يرحم ، في زمنٍ أصبحت فيه الشركاتُ عابرةُ القارات أُخْطَبوطاً هائلاً تهدد برأسمالها الفلكي كلَّ الاقتصادات الصغيرة .

ومن أسفٍ أن دار الإفتاء في مصر لم تتحرك إلا بعد أن فَقَدَ مئاتُ آلافٍ من صغار المدَّخرين أقوات أُسَرهم بسبب تلاعبِ مجموعاتٍ من الذين لا يخافون الله ، تحت ستارٍ شرعي مزعوم .

ولا يجوز أن يكون ذلك خاتمة المطاف ، بل بدايةً صحيحة للشوط الذي يدمجنا في العصر ، ويجعلنا نساهم في إنشاء الحضارة لا أن نستهلكها ونَنْعَم بفتاتِ موائدِ المتقدمين ، كما ذكر المرحوم شكري ..

ومن المهام التي تقع على عاتق المجتهدين ، ولستُ منهم ، مسألةُ رفع العوائق التي تقف في سبيل نوال المرأة حقوقها ، تطبيقاً لقوله تعالى : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ . وهو مذهب نادى به المرحوم أيضاً .. ومن

---

(١) الأستاذ البارز في معهد حقوق دمشق (كلية الحقوق الحالية) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأمثلة على هذه العوائق منعُ شهادة المرأة في الحدود والقصاص ، ومسألةُ تحديد ديتها بنصف دية الرجل .. وهي حلولٌ رسخت من قِدَمٍ ، دون أن يكون لها سندٌ في الشريعة السمحاء ... وبصورة عامة فتح باب الاجتهاد واسعاً لإعادة النظر في تفسير التراث تفسيراً منفتحاً على العصر ، ليكون قادراً على مواكبة التطور والخلاص من الجمود الذي تردى فيه ...

أيها السيدات والسادة :

إني أعرف أنني لم أُوَفِّ سلفي الكبير حقه ، لا من حيث تعدادُ ما دبجته يراعته من كتب وأبحاث مشرقة ، ولا من حيث تحليلُ مضامينها وتأثيرها في الأدب والاجتماع وتطوير الفكر العربي والفقه الإسلامي . وقد قدمت لكم غيضاً من فيض وباقةً من بستان ..

ولن أجد خاتمة لهذا الخطاب خيراً من قول شاعر قديم :

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

والسلام عليكم ورحمة الله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net